غربة الروح
محمد بن عبدالرحمن السقاف

بِسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول اللَّه، وآله وصحبه ومن والاه.. وبعد / فقد أكرمني ربي الكريم بساعة من آخر الليل أمام الكعبة المشرفة من ليلة الجمعة المعظمة في عام 1420، فتحركت بعض المعاني في صدري.. فهيجت دواعي الشوق لحقيقة ما خلقنا اللَّه من أجله، فسطرت بعض ذلك في هذه العبارات التي أسأل اللَّه تعالى أن يجعلها سبباً لتوجه القارئ لها إليه تعالى بوصف الصدق والإخلاص.. وأطلب منك أخي القارئ أن تقرأها في هدوء وصفاء..

قلت وعيني ناظرة الى الكعبة:

بِسم اللَّه الرحمن الرحيم

إلهي لك الحمد على أن أحضرتني هذا المحضر..
وأشهدتني هذا المنظر..

ما أعظم بيتك الحرام.. وما أجل هذه المشاعر العظام،

قلوب الخلق تَحِنُّ إليها.. وإذا ذكرها البعيدون
المشتاقون أنَّت قلوبهم شوقاً لها،

وها أنت ذا تكرمني بالحضور..

وأنا من أنا؟.. أنا العاصي.. أنا المقصر.. أنا الغافل،

ما أقربك مني وما أبعدني عنك.. تقابلني بالصفاء
وأقابلك بالجفاء.

لكن كيف وصلت إلى هنا؟.. وما الذي دعاني؟ وأي صوت ناداني؟.. وأي باعث حركني؟

أنا أعيش في الترهات وأرعى في البطالات... وأصبح وأمسي في الغفلات.

تردد السؤال وأنا أنظر لبيت اللَّه، والعباد مقبلون على ربّهم، هذا طائف.. وهذا عاكف.. وهذا دمعه واكف.

وأنا في حيرة وسؤال!!

وبينما هذا الخاطر يتردد في صدري.. إذا بصوتٍ يأتي من بعيد أعرفه وأنكره، نعم إنه صوت آلفه... لكن كأن بيني وبينه أمداً بعيداً... ودهراً مديداً، وإذا به يقول لي: نعم أنا.. أنا الذي أزعجتك.. وأنا الذي أقلقتك.. وأنا الذي حيرتك..

أما تعرفني؟!

قلت: أعرفك ولا أعرفك.. كأنني نسيتك

فقال لي: آهٍ آهٍ آه... لقد أتعبتني كثيراً،

كلما كلمتك أسكتني ولجمتني..

كلما ناديتك أعرضت عني، أريد لك الراحة وتريد لي التعب.. أريد لك الحرية وتريد لي الحبس.. أريد لك النور وتريد لي الظلام.. أريد لك الوطن وتريد لي الغربة.

فقلت: الغربة!! أي غربة وأي وطن.. أنا الآن أمام بيت اللَّه الحرام، أشرب زمزم وأصلي خلف المقام..

قال: مع ذلك أنت تريد لي الغربة...

ما هذا الجفاء؟! ولما هذه القسوة؟!

أما ترحمني.. أما ترأف بحالي؟!

غيّبتني عن وطني طويلاً.. وأبعدتني عن سكني كثيرا.

قلت: لا أفهم ما تقول.. فكلامك غير معقول.

أنا الذي طالما كلمت الناس عن الغربة، وألقيت فيها محاضرات وكتبت فيها رسائل ومقالات وأُعجب بها وأحبها الكثير.

قال: نعم.. لقد سمعت وقرأت كل ما قلت..

بل لا يوجد أحد أعرف بما قلت مني.

قلت: عجبا!!.. فكيف تتهمني بأنني غربتك عن وطنك.. وأنا المشفق على الغرباء.. الذي دائماً ما أسعى لتخفيف آلامهم، وتضميد جراحهم، وتهوين أحزانهم..

فكيف تتهمني بالقسوة والجفاء؟!

قال لي: انظر.. أين أنت الآن؟

قلت: أمام الكعبة المشرفة.

قال كيف أتيت؟

قلت: تحركت عندي العزيمة فأتيت.

قال: أنا الذي حركتك للمجيء، وقد أتعبتني كثيراً.. وأرهقتني وأوهنت قواي..

قلت: يا صاحب الصوت لقد زادت حيرتي فيك..

من أنت؟!

فتارة أحس بأنك قريب.. قريب جداً، كأنك بداخلي، وتارة أحس بأنك بعيد.. بعيدٌ جداً..

كأن بيننا ما بين السماء والأرض.

فباللَّه عليك من أنت.. من أنت؟

قال: نعم أنا منك قريب.. قريب جداً؛ لكن أنت تبعد عني.. وتبعدني عنك..

قلت: سألتك باللَّه من أنت؟!

فقال: سألتني بالعظيم ربي.. إلهي.. مولاي.. خالقي.. ولي النعمة علي

أنا...أنا... أنا روحك.. أنا نفخة اللَّه فيك.. أنا سرك وحقيقتك.. أنا الذي سُجنت في قفص جسدك..

أسمعت؟!

ألا أيها الروح هل ترضى مجاورة

على الدوام لهذا المنظر الكدر

فأين كنت ولا جسم تُساكِنُهُ

أَلَستَ في حضرات القدس فَادَّكِر

تأوي مع الملأ الأعلى وتكرِع من

حياض أنس كما تجني من الثمرِ

تأتي إليك نسم القرب مهدية

عرف الجمال كعرف المندل العطرِ

حتى جُعلت بِأمر اللَّه في قفص

لِيَبتليك فَكُن مِن خير مختبرِ

فَحِينَ أبصرت هذا الجسم قد برزت

به العجائب من باد ومستترِ

أنستك بهجته ما كنت تشهده

من قدس ربّك فاعرف ضيعة العُمرِ

ثم قال: انظر إلى الأعلى.. ماذا ترى؟

قلت: أرى السماء.

قال: وماذا؟

قلت: أرى طيوراً..

قال: أتسمع أصواتها؟

قلت: نعم.. جميل وعجيب.. خصوصاً في هذه الساعة وفي هذا المكان

قال: كيف ترى لو أخذت أحدها من بيتها فوضعته في قفص مظلم موحش.. كيف يكون حاله؟

أما تنظر الطير المقفص يا فتى

إذا ذكر الأوطان حنَّ إلى المغنى

قلت: حال صعب لا يوصف، لا أظنه يطيق الحياة بعدها..

فقال: عجباً !

تشفق على هذا الطير إذا غربته وحبسته.. ولا تشفق على طول تغريبك وحبسك لي.. ألا تعلم انك بذلك ترتكب أعظم جريمة تغريب وحبس..

ظَلَمتَ وما إلا لِنَفسِكَ يا فتى

ظَلَمتَ وَظُلم النفس مِن أقبح الظلم

نعم عالَم الأرواح خير من الجسمِ

وأعلى ولا يخفى على كل ذي عِلمِ

فَمَالَكَ أَفنَيتَ عُمرَكَ جاهداً

بخدمة هذا الجسم والهيكل الرسمي

فقلت: وما أصنع؟! وما العمل؟!

رباه.. غوثاه.. ماذا فعلت بنفسي وماذا جنيت!؟ أكنت أكذب عليها وعلى الناس؟!

قال: آه.. كم ناديتك وكم دعوتك وكم حاولت أن أُسمعك صوتي فما استطعت.. أقول ما باله أناديه من داخله فلا يسمعني

قلت: وكيف سمعتك الآن؟

قال: إنه فضل اللَّه.. اغتنمت هذه الساعة.. رأيت أنوار الحق تتلألأ.. ونفحات المولى تهب في هذه الساحة

في هذه الساعة..

فإن اللَّه جعل الكعبة مطاراً للأرواح.. ففوقها البيت المعمور.. والملائكة حوله يطوفون.. والروح من العالم السامي.. فتنجذب هنا إلى هناك.. فهي مغناطيس الأرواح..

ولذا تعشّقها العارفون..

قلت: الحمد للَّه.. الحمد للَّه الذي أسمعني.. وأوصل هذا الصوت إلي..

لكن! بعد هذا العمر كله.. بعد النومة الطويلة، لقد ارتكبت الذنوب والمعاصي واسودَّ قلبي وأظلم باطني فما الفائدة..

وأخشى أن أرجع من هذا المكان فأعود إلى ما كنت عليه، وأفقدك وتفقدني..

قال لي: لا.. لا تيأس من روح اللَّه، ولا تقنط من رحمته..

{وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}

اسمع..

من الذي أتى بك إلى هنا.. أليس هو؟

قلت: بلى

قال: ما الذي أقدرني الساعة على مخاطبتك..

أليس هو؟

قلت: بلى

قال: فمن القائل: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}

قلت: اللَّه.. اللَّه.. ما أرحمه وأكرمه.. ينسبنا إليه مع إسرافنا على أنفسنا.. وينادينا.. يا عبادي.. ما أوسع كرمه تعالى.

ثم قال: من أي أمة أنت؟

قلت: من أمة سيدنا محمد بن عبد اللَّه .

قال: أتعلم من هو؟

قلت: سيدي... نبيي... رسولي... حبيبي...

نور عيني... وجدي...

فصرخ صرخةً عظيمة هزت جميع كياني.. وأنَّ أنةً شديدةً... أحرقت أحشائي وأوجعت أضلاعي...

وقال: أما تعلم أن نوره غذائي.. وحبه ماء حياتي، أما تعلم أنه قبلتي.. ووجه وجهتي.. وهو إمام أهل الحضرة القدسية.. وهو سر وجودي

أما تعلم أنه الذي ربط على بطنه الحجر من الجوع من أجلنا..

أما تعلم أنه الذي شُج جبينه وسال دمه من أجلنا..

أما تعلم أنه الذي رُمي بالحجر من أجلنا..

قلت: بلى.. بلى أعلم ذلك كله، بل وأُعلّمه للناس..

قال: فما صنع بك هذا العلم؟! أرني دمع عينيك.

فوجدتُها جافة لا تسيل.

قال: أرني أرق ليلك وجفاء مضجعك..

فإذا بي كثير النوم على الفُرش الوثيرة.

قال: أرني شحوبة وجهك وصفرة لونك ونحول جسدك..

فإذا أنا كثير الطعام بدين الجسد،

لا أثر للحزن والهم في وجهي.

فقال لي: فما علامة صلتك به؟!

وما دلالة ارتباطك بحبله؟!

قلت: أحبه.. واللَّه أحبه.. واللَّه أحبه.

قال: إنما المحبة عندي وأنت تحس بنزر يسير منها..

أنا حبل صلتك به.. وآلة محبته.. والعين التي تراه بها، والأذن التي تسمعه بها.. فلا تحرمني من قربه،

وتمنعني من مشاهدته..

قلت: وكيف؟!

قال: كلما أردتُ قُربه وطلبت صِلَته غلبت عليك نفسك الأمارة بالسوء ووسواس الشيطان..

فحرمتني قربه وطردتني من حضرته..

وكلما أردتُ أن أكحل عيني من نور جمال وجهه.. امتدت عيناك إلى ما حرم الله أو إلى زهرة الدنيا.. فحجبتني عنه..

قلت: لاحول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال: ماذا تحس وتشعر وأنت تنظر إلى هذه الكعبة؟

قلت: أحس بأنس وذوق عجيب..

قال: أشك في كلامك هذا.. ومع ذلك إن هذا الشعور عندك ليس سوى ذرة من شعوري.. وشعوري بالذوق عند نظري للكعبة يسيرٌ أمام ما يجد من ينظر إلى وجه حبيب الله.. الذي جُعِلَت الكعبة قبلة من أجل وجهه..

أما سمعت قوله تعالى :

{قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}

أترى ما تصنع بي؟

والآن أرجوك لا تحبسني.. لاتغربني

قلت: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.. ما هذا الخلط في أفكاري؟ ما هذه الغشاوة التي على بصري؟

لقد عِشتُ حياتي أفهم الغربة بمفهوم سطحي وبسيط..

لقد علمت اليوم ما هي الغربة..

الغربه أن يعيش روحك حبيس في جسدك المظلم بالمعاصي والذنوب.. غريب عن عالمه الأصلي..

فَوَا أسفى لفوات العمر الذي مضى..

والزمان الذي انقضى..

{رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}

وصلى الله على على سيدنا محمد المختار وآله الأطهار
وصحبه الأخيار وسلم تسليما كثيرا..

والحمد لله رب العالمين.